د/إبراهيم أبراش

رد الاعتبار لغزة في إطار استنهاض المشروع الوطني الفلسطيني

في الوقت الذي تجد الشعوب العربية ذاتها الضائعة مكتشفة قدراتها المُصادرة والمغيبة، مستعيدة روحها الثورية والنضالية التي اُختبرت عبر التاريخ في مراحل متعددة مكسرة حاجز الخوف ،متمردة على برادغم الطاعة منتفضة على الظلم والاستبداد ... ،نجد الشعب الفلسطيني الذي يخضع للاحتلال ولسلطتين مأزومتين وفاشلتين ،يفقد ذاته وروحه النضالية ،ينقلب على تاريخه النضالي ،يتحول لجموع متصارعة مع ذاتها، مستجدية المساعدات ،تائهة ،ضائعة تشغلها همومها المعيشية على الهم الوطني العام .

من مصر إلى المغرب تتحرك وتنتفض الشعوب العربية غير الخاضعة للاحتلال ضد الظلم والقهر بكل الوسائل المتاحة بالثورة الشعبية أو من خلال المسيرات والمظاهرات أو من خلال النضال الديمقراطي وصناديق الانتخابات .الفلسطينيون صناع التاريخ والبطولة والتضحية ومصدر الإلهام لكل الشعوب المناضلة من اجل الحرية والخاضعون للاحتلال والانقسام والشتات باتوا يعيشون على هامش التاريخ وهامش الحدث ،تسيطر عليهم القدرية السياسية ،ينتظرون المنقذ الخارجي ،أي منقذ كان: واشنطن ووعودها ، الرباعية ومبادراتها ، الجامعة العربية ومشاريعها، جيش إسلامي مليوني أو رحمة ربهم.

ما الذي دهى الشعب الفلسطيني وصيره على هذه الحال من السلبية والاتكالية والقدرية السلبية. أين أهل وشباب نابلس الذي سطروا ملاحم البطولة حتى استحقت نابلس تسمية (جبل النار)؟ أين أهل وشباب جنين ومخيم جنين حيث البطولة والصمود في مواجهة الاحتلال؟ أين شباب بيت لحم ورام الله والخليل وطولكرم الخ؟ هل يُعقل أن وصلت بهم السلبية لدرجة الجلوس ومراقبة الاستيطان يلتهم أراضيهم من حولهم وجيش الاحتلال يجوب شوارعهم وقدس الأقداس يتم تهويدها وكرامتهم تمتهن على الحواجز ونقاط التفتيش، وهم يراقبون ولا يحركون ساكنا؟ لا يكفي ولا يُقنع القول بأن التنسيق الأمني يمنعهم من القيام بواجبهم الوطني لأن الأجهزة الأمنية في الضفة جزء منهم، ومن تصدى لدبابات الاحتلال وجنود الاحتلال بصدورهم العارية وبالحجارة لن تعوزهم الوسيلة والحيلة لمواجهة الاحتلال ومن ينسق معه إن توفرت الإرادة.

أما غزة وأهل غزة فحدث ولا حرج ،غزة التي حملت القضية الفلسطينية على أكتافها منذ النكبة وحملت راية الوطنية والجهاد ودفعت لساحة النضال الأبطال من خيرة شبابها غزة التي أذاقت الاحتلال الويل حتى تمنى أن يأخذها البحر، غزة التي كانت ثورية وعنفوان شبابها مصدر قلق وخوف ليس للاحتلال الإسرائيلي فقط بل لكل الأنظمة التي يتواجدون فيها أهل غزة باتوا اليوم يعيشون المذلة والضياع ،يجوبون الشوارع بحثا عن الغاز تارة وعن الوقود تارة أخرى وهربا من ظلمة بيوتهم بسبب غياب الكهرباء حينا آخر. شباب غزة الذي كانوا مناضلين ومجاهدين ومشاريع شهادة باتوا موظفين أو عاطلين عن العمل يصطفون في طوابير ينتظرون الكوبونة أو مساعدة وكالة الغوث ،أو منخرطين بأجهزة أمنية تطارد الشباب في الشوارع وتقمع الحريات.

وليس حال أهلنا في الشتات بالأفضل، فالسفارات تحولت لأجهزة بيروقراطية منقطعة الصلة بالجاليات الفلسطينية وبالجماهير ومؤسسات المجتمع المدني والأحزاب في الدول التي تتواجد فيها، وانتقل الانقسام من الداخل ليضرب الجاليات الفلسطينية في الخارج ويُغيب أي شكل من أشكال العمل المشترك، والاتحادات والمنظمات الشعبية في الخارج والتي كانت تعتبر قواعد للثورة الفلسطينية تتآكل وتموت بالتدريج أو ينخرها الفساد والانقسام .نصف الشعب الفلسطيني الذي يعيش في الخارج بات يراهن على نصفه المشلول والعاجز في الداخل.

ليس من المهم أن ندخل بنقاش الآن عن المسئول عما آلت إليه الأحوال ، هل هي حركة حماس وانقلابها على السلطة؟ أم فساد السلطة سابقا وعجزها عن التقدم في مشروعها السلمي؟ أم قوى اليسار ومؤسسات المجتمع المدني؟ أم تخاذل الأشقاء العرب والمسلمين؟ أم الاحتلال وجبروته؟ . لا شك أن الاحتلال يتحمل المسؤولية الأولى ، ولكن لا يمكن تحميل الاحتلال المسؤولية عن فشل وعجز النظام السياسي الفلسطيني بكل مكوناته لأنه وُجِد أصلا في ظل الاحتلال ولمواجهته .ولا يجوز تحميل الأصدقاء والأشقاء المسؤولية لأنهم لن يكونوا فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين وأقصى دور لهم أن يكونوا داعمين ومساندين وليس أن يحلوا محل الفلسطينيين. إن كان لا بد أن نتحدث عن المسؤولية داخليا فإنها تقع على النخب من أحزاب ومؤسسات ومثقفين وكتاب وأكاديميين.لا يمكن تحميل الشعب المسؤولية وإلا ما كان مبرر لوجود قيادات وزعماء ونخب وأحزاب،فهذه تتشكل وتظهر لتنوب عن الشعب وتقوده حسب خياراتها وبرامجها .